(١٨)

محنة الضمير الديني هناك

العدد (٦٢) صفر (١٣٩٠هـ) أبريل (١٩٧٠م)

هذه سياحة سريعة داخل أقطار الفكر الديني الغربي، ستفاجئنا فيها أحكام ينقصها السداد، ومؤامرات يحبكها الغدر، وضغائن لا تزال عميقة على طول العهد وامتداد الزمان!

ومن حقنا نحن المسلمين- وقد لفحتنا حرب بقاء أو فناء- أن ندرس الجبهة التي مسنا عدوانها، وأن نزن ببصر جديد طبيعة العواطف الدينية التي تكمن أو تبرز خلف أحداث لا تبدو لها نهاية قريبة!

ولنبدأ بمقال نشرته جريدة كاثوليكية تطوعت بإسداء نصائحها الغالية لإسرائيل، وليست هذه النصائح الغالية أن يعترف اليهود بحق العرب، وأن يعودوا من حيث جاءوا تاركين البلاد لأصحابها.. لا!

إن الضمير الديني عند الصحيفة المتدينة جعلها تسدي نصحا من لون آخر، لقد قالت لليهود: إننا احتللنا فلسطين قبلكم، وبقينا فيها سنين عددا، ثم استطاع المسلمون إخراجنا وتهديم المملكة التي أقمناها ببيت المقدس.. وذلك لأغلاط ارتكبناها، وها نحن أولاء نشرح لكم تلك الأغلاط القديمة حتى لا تقعوا فيها مثلنا!

استفيدوا من التجربة الفاشلة كي تبقى لكم فلسطين أبدا، ويشرد سكانها الأصلاء فلا يخامرهم أمل في عودة!

وشرعت الصحيفة التقية تشرح لماذا انهزم الصليبيون الأقدمون، وتوصي حكام إسرائيل بأمور ذات بال، وتحرضهم في نذالة نادرة أن يوسعوا الرقعة التي احتلوها، وأن يستقدموا أفواجا أكثر من يهود العالم، وأن يحسنوا

خطتهم في ضرب العرب، ومحو قراهم، وإبادة خضرائهم، وبذلك يستقر ملك إسرائيل، وينحدر الإسلام والمسلمون..

وهاك أيها القارئ عبارات المقال الذي نشرته مجلة «تابلت» الإنجليزية الكاثوليكية للكاتب «ف. س. أندرسون».

يقول الكاتب المذكور: «إن نظرة واحدة إلى خارطة حدود إسرائيل الحالية تعيد إلى الذاكرة للفور أوجه الشبه القوية بين تلك الحدود وحدود مملكة الصليبيين التي قامت عقب احتلال القدس سنة ١٠٩٩م

ونظرا إلى الأعمال العدائية بين إسرائيل وجيرانها نرى من المفيد أن نقارن بين الحالة العسكرية الراهنة وبين مثيلتها أيام الصليبيين القدامى علنا نرى ما إذا كان سيقيض لإسرائيل حظ أوفر مما كان للصليبيين أم سيلقون مصيرهم؟ إن مملكة الصليبيين لم يكتب لها البقاء إلا أمدا قصيرا، فقد مكثت ثمانية وثمانين عاما فقط، ثم استرد المسلمون القدس!

ومع أن المسيحيين نجحوا في الاحتفاظ بقطاع صغير شرقي البحر المتوسط مدة مائة عام أخرى إلا أنهم فشلوا في الدفاع عن عكا أخيرا وأخذوا يغادرون هذه البلاد تحت جنح الظلام عائدين إلى أوروبا.

إن سقوط تلك المملكة كان يعود إلى بضع نقائص ظاهرة فإذا أريد لإسرائيل أن تعيش مدة أطول، فما عليها إلا أن تحتاط ضد هذه النقائص.

لقد دخل الصليبيون فلسطين في ظروف ملائمة جدا لهم، تميزت بوقوع الفرقة بين المسلمين، وعجزهم عن إقامة جبهة مقاومة موحدة! وهكذا استطاع المهاجمون أن يهزموا المسلمين بسهولة، دويلة بعد دويلة، وأن يمكنوا لأنفسهم في الأقطار التي فتحوها.

غير أنه لم يمض وقت طويل حتى ظهر زعيم عسكري مسلم استطاع أن يوحد المسلمين أمام خصومهم بسرعة، ثم حشد قواهم في معركة حطين،

وأصاب الصليبيين بهزيمة ساحقة، تقرر على أثرها مصير القدس، بل انحسر بعدها المد الصليبي جملة، ودخل صلاح الدين الأيوبي مدينة القدس، التي عجز أعداؤه عن استبقائها أو استعادتها فتركوها يائسين.

يقول الكاتب الكاثوليكي «كان الصليبيون يستطيعون البقاء مدة أطول في تلك البلاد لو لم يعانوا نقصا شديدا متواصلا في الرجال، ولو أنهم وسعوا حدود مملكتهم وفق ما تمليه الضرورات العسكرية الماسة، لماذا لم يحتلوا دمشق؟ لقد كان احتلال دمشق مفتاح مشكلتهم وضمان بقائهم!

وسيظل عدم تقديرهم لهذه الحقيقة لغزا لنا! نعم إنهم بذلوا جهودا واهية لاحتلال تلك المدينة، بيد أن محاولاتهم كانت من الضعف بحيث كتب عليها الفشل.. وبدلا من أن يتابعوا جهودهم لاحتلال دمشق اتجهوا جنوبا واحتلوا العقبة وشرعرا يوجهون حملاتهم إلى مصر، مع أن الإشراف على النيل هدف عسير التحقيق!

وعندما أصبحت للمسلمين اليد العليا في ذلك العهد استطاعوا إجلاء الصليبيين عن العقبة وعن سائر حصونهم في الجنوب، إلا أن الكارثة الكبرى جاءت من الشرق، فإن معركة حطين وقعت بالقرب من بحيرة طبرية عند الزاوية الشمالية الشرقية لمملكة الصليبيين.

ولما كانت دمشق والأرض الممتدة بين الأردن والصحراء السورية ملكا للمسلمين فقد استطاعوا أن يتحركوا بحرية على ثلاث جبهات حول المملكة الصليبية التي أضحت شبه محصورة..

وذلك ما أعجزها عن المقاومة!»

يقول الكاتب الحزين لما أصاب أسلافه: «ولو أن الصليبيين اندفعوا قدما وقطعوا الممر الذي يؤدي إلى الشرق من دمشق لاستطاعوا منع مرور الجيوش والقوات بين سورية ومصر، ولكانت حدودهم الشرقية المستندة إلى الصحراء أكثر أمانا، ولأمكنهم الانتفاع من أساطيلهم البحرية» ثم يستأنف

الكاتب الحاقد كلامه فيقول: «لقد أقيمت إسرائيل في وقت كان العرب في الدول المجاورة عاجزين عن القيام بعمل موحد، ثم بقدر كبير من الجهد والشجاعة استطاع اليهود أن يبلغوا حدودهم الحالية، لكن هذه الحدود تطابق حدود المملكة القديمة للصليبيين وقد عرفنا مآلها فما العمل؟»

يقول الكاتب محرضا اليهود على مزيد من العدوان: «مرة أخرى، ما لم تتحرك إسرائيل في الاندفاع نحو دمشق فستبقى للعرب تلك الحرية الخطرة في تنقيل قواهم حول ثلاث جهات من إسرائيل، وفي ذلك ما فيه».

ويستطرد: «قد يكون من العسير سياسيا أن تتحرك إسرائيل لغزو سورية واحتلال دمشق، لكن الاتجاهات السياسية السورية قد تساعد على تسويغ ذلك، وإن مثل هذه النزهة الحربية (!) ستنطوي على فائدة دائمة لإسرائيل أعظم من الفائدة التي تجنيها من التغلغل في صحراء سيناء».

ويختم الكاتب نصائحه لأصدقائه اليهود فيقول: «إن اسرائيل لن تنقصها القوى البشرية، فلديها جيش كبير، بالإضافة إلى هجرة منظمة من جميع أنحاء العالم تمدها بكل ما تفتقر إليه من طاقات، ويجب أن تظل قادرة على وضع جيش قوي في الميدان يكون دائما على أهبة الاستعداد».

لو أن كاتب هذا الكلام يهودي قح ما استغرب المرء حرفا منه! إن وجه العجب في هذا التوجيه المشحون بالود لإسرائيل، والبغض للعرب والمسلمين، أن الكاتب رجل مسيحي ينشر رأيه في مجلة كاثوليكية.

وهو يفكر ويقارن ويقترح، كأن القضاء على العروبة والإسلام جزء من عقله الباطن والظاهر، ثم هو لا يشعر بذرة من حياء في إعلان سخائمه! إن مشاعر البغضاء المضطرمة في جوفه تغريه بالاسترسال والمجازفة دون أي تهيب.

ويحزننا أن هذا الكلام ليس إبداء لوجهة نظر خاصة، فإن الكاثوليك في

أرجاء الأرض انتهزوا فترة الضعف التي يمر بها الإسلام كيما يحولوها إلى هزيمة طاحنة وفناء أخير.

والروح الذي أملى بكتابة هذا المقال هو نفس الروح الذي كمن في مقررات المجمع المسكوني الذي عقده بابا رومة وصالح فيه اليهود، وأمر الكنائس بعده ألا تلعنهم في صلواتها.

وهو الروح الذي جعل البابا بولس يزور القدس، ويدخل الأرض المحتلة ويتعامل مع سلطات إسرائيل، وهو تصرف لم يفعله أحد الباباوات من مئات السنين! وللقارئ المسلم أن يسأل: أذلك موقف الكاثوليك وحدهم، أم أن أصابع الاستعمار الغربي قد أفسدت التفكير الديني لدى كثير من المفكرين الغربيين؟ قرأت كتابا وجيزا للمؤلف المنصف الدكتور وليم سليمان وردت به هذه الحقائق، نذكرها مع تعليق سريع لا بد من إيراده.. قال: «في ديسمبر سنة ١٩٦١ عقد مجلس الكنائس العالمي مؤتمره الثالث في نيودلهي، وأصدر قرارا حدد فيه موقفه من اليهود جاء فيه: لا بد من تهيئة التعليم الديني المسيحي وتقريبه للأذهان على وجه يبرئ اليهود من تبعات الأحداث التاريخية التي أدت إلى صلب المسيح إذ إن هذه التبعات تقع على عاتق الإنسانية كلها(!) وقد صرح الراعي البروتستانتي الأمريكي ل. ج. بنيت الأستاذ بمعهد اللاهوت بنيويورك قائلا: إن الكنائس مسؤولة بوجه خاص عن العداء للسامية، فقد ظلت تعاليم المسيحية موجهة عدة قرون ضد اليهود، وهو عداء يعد من مخلفات الأحقاد الدينية القديمة».

نقول نحن: وما ذنب المسلمين في هذا؟ وهل عرب فلسطين يدفعون ثمن هذا الخطأ الكنسي من وطنهم وكرامتهم وحاضرهم ومستقبلهم؟

ذلك ما يريده مجلس الكنائس العالمي الموقر! فإن هذا المجلس عقد مؤتمرا في بيروت وزار أعضاؤه مخيمات اللاجئين ثم قرر أنه ليس هناك حل دائم لمشكلة الفلسطينيين إلى أن يبت في القضية الخاصة بالخلاف بين العرب وإسرائيل.

وقال المؤتمر الطيب القلب: إن ذلك سيشمل خطة عامة لتعويض اللاجئين سواء عادوا إلى وطنهم أم لم يعودوا وإن هناك صدقات سوف يأخذها أصحاب الأرض والمطرودون!

وفي سنة ١٩٦٤ عقد مجلس الكنائس العالمي فصله الدراسي الثالث عشر بجنيف وافتتح الجلسة عميد الكلية اللاهوتية بجامعتها فقال لا فض فوه «حين تثور مشكلة اليهود فإن الكنيسة لا تستطيع أن تتجاهل ثقل مسؤوليتها العظيمة عن آلامهم، وضياعهم طول تاريخهم، ولذلك فإن أول ما يصدر عنها نحوهم هو طلب المغفرة!

يجب على الكنيسة أن تطلب المغفرة من اليهود! بهذه العبارة الضارعة الذليلة يفتتح مجلس الكنائس العالمي الجلسة التي يحدد فيها موقفه من دولة إسرائيل.. ونتساءل نحن مرة أخرى: إذا أجرم غيرنا وجب علينا نحن القصاص؟

﴿ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ (**الأعراف: ٤٤، ٤٥**) لقد فكرت في هذا الأمر مليا! إن حقنا ليس غامضا حتى يلتمس عذر لمستبيحه! هل المال اليهودي من وراء هذه الذمم الخربة مهما كانت مناصبها الدينية؟ ربما.. أم أن الضغائن العمياء على الإسلام وأمته سيرت الخطب والمقالات في هذا المجال الفوضوي المكابر الوقح؟ ربما.

لكن الدكتور وليم سليمان في كتابه «الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية»

يذكر لنا كلاما آخر يستحق الدرس والتأمل.

إنه ينقل عن مؤرخ الإرساليات ستيفن نيل هذه العبارات من تقرير له: «لقد تيقن الرجل الغربي أن سجله الاستعماري حافل بالعار، وأصبح أقل

ثقة مما كان في وحدانية الإنجيل المسيحي ونهائيته، وفي حقه- أي حق الرجل الغربي- أن يفرض على ورثة الأديان العظيمة الأخرى شيئا قد يثبت في النهاية أنه ليس أكثر من خرافة[١] غربية A. WESTRN MYTH .

وبدأ في أوساط رجال اللاهوت هجوم صريح على الألوهية بكل مظاهرها في المسيحية! وانتشر تيار فكري يجعل نقطة بدايته «موت الإله»(!) وينادي بمسيحية لا دين فيها! وينادي بهذه الأفكار بنهوفر ويلثمان والأسقف الإنجليزي جون روبنسون[٢] ويخيل للمراقب من بعيد أن القوم يثورون على الإله لأنه تخلى عنهم وساعد أعداءهم».

ويستطرد الدكتور وليم سليمان فيقول عن الغربيين: «الدين في نظرهم لم تعد له قيمة في ذاته، إنه شيء يمكن الاستفادة منه لتحقيق الأهداف الدنيوية التي ينشدها الغرب في شتى أنحاء العالم...»

وخلاصة هذا الكلام أن المسيحية انتحرت في أوروبا! فأي تدين هذا الذي ينخلع ابتداء عن الإيمان بالحي القيوم؟ ويعتبر التعامل معه منتهيا لأنه تلاشى ومات؟

إن ذلك هو التفسير الحقيقي لانضواء رجال الكهنوت تحت راية الاستعمار وركضهم الخسيس في خدمة قضاياه.

وعندما تتسابق شتى الكنائس الغربية لإرضاء إسرائيل وتملق اليهود فهل يدل ذلك إلا على شيء واحد.. أن رجال الدين باعوا ضمائرهم للشيطان؟

---

(١) تاريخ الارساليات ص ٤٥٠ - ٤٦٥

(٢) انظر على سبيل المثال كتاب روبنسون «Houest to God» الذي طبع منه في مارس سنة ١٩٦٣ أربع طبعات وفي إبريل سنة ١٩٦٣ طبعتان وفي كل من مايو ويوليو وسبتمبر من نفس العام طبعة، وكانت الطبعة العاشرة في سبتمبر سنة ١٩٦٤ وقارب عدد النسخ المطبوعة منه مليون نسخة وعلقت عليه مجلة تايم في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٦٤ ونيوزويك في إبريل سنة ١٩٦٩ ومجلات أمريكية أخرى كثيرة.

إن العرب يتعرضون لإبادة عامة، والمتفجرات تنسف منازلهم، وقد محيت قرى بأكملها من الوجود، والدفاع عن النفس يوصف بأنه إجرام وتمرد! ووسط هذه الحريق المستعرة، يبارك ساسة إسرائيل، ويقول رجال الدين والدنيا: خلقت إسرائيل لتبقى! فأين منطق الإيمان بالله واليوم الآخر في تلك المداهنة وهذا الاستخدام.

ظاهر أن القوم قد تحولوا إلى سماسرة وعملاء للاستعمار العالمي.. واعتقادي أن هذه المحنة الرهيبة ستوقظ الإسلام النائم، وإن كان غيري يرى أن المادية المتربصة هي الكاسبة من خيانة الغرب لدينه ومثله.

ولا شك أن المستقبل محفوف بأخطار شداد، بيد أننا لن نفقد توازننا ولا ثقتنا في أصالتنا الدينية ولا آمالنا في جنب الله.

واعتقادي كذلك أن الاستعمار سيفشل في محاولاته الدائبة لجر الكنائس الشرقية إلى جانبه، وإشراكها في مآسيه، وإذا كان قد ضلل البعض فإن الجمهرة الغالبة ستبقى على وفائها لتعاليمها ومواطنيها وتاريخها الصبور.